ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ(١) كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

يريد الحق - سبحانه وتعالى - أن يلفتنا إلى ما يدلّ على وحدة الخالق الأعلى ، وكمال قيوميته ، وكمال قدرته ، وذُكرتْ هذه الآية بعد عدة أوامر ونواه ، وكأن ربك - عز وجل - يريد أنْ يُطمئنك على أن هذا الكون الذى خلقه من أجلك وقبل أن تُولد ، بل ، وقبل أن يخلق الله آدم أعدَّ له هذا الكون ، وجعله فى استقباله بسمائه وأرضه وشمسه وقمره ومائه وهوائه ، يقول لك ربك : اطمئن فلن يخرج شىء من هذا الكون عن خدمتك فهو مُسخَّر لك ، ولن يأتى يوم يتمرّد فيه ، أو يعصى أوامر الله :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ.. ﴿٤١﴾ ﴾ [النور]

﴿ أَلَمْ تَرَ.. ﴿٤١﴾ ﴾ [النور] يعني : ألم تعلم ، كما فى قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ ﴾ [الفيل] ومعلوم أن النبى ﷺ وُلد عام الفيل ، ولم يَرَ هذه الحادثة ، فلماذا لم يخاطبه ربُّه بألم تعلم ويريح الناس الذين يتشكّكون فى الألفاظ ؟

قالوا : ليدلّك على أن ما يخبرك الله به - غيباً عنك - أوثقُ مما تخبرك به عينُك مشهداً لك ؛ لأن مصدر علمك هو الله ، ألاَ ترى أن النظر قد يصيبه مرض فتختل رؤيته ، كمن عنده عمى ألوان أو قصر

(١) صافات : مصطفات الأجنحة فى الهواء ، فهن باسطات الأجنحة . وقال سفيان : للطير صلاة ليس فيها ركوع ولا سجود . وقيل : إن ضربها بأجنحتها صلاة ، وإن أصواتها تسبيح . حكاه النقاش . [تفسير القرطبى ٦/٤٨٢٤] .

نظر .. إلخ إذن : فالنظر نفسه وهو أوثق شيء لديك قد يكذب عليك .

والتسبيح : هو التنزيه ، والتنزيه أن ترتفع بالمنزّه عن مستوى ما يمكن أنْ يجولَ بخاطرك : فالله تعالى له وجود ، وأنت لك وجود ، لكن وجودَ الله ليس كوجودك ، الله له ذات وصفات ، لكن ليست كذاتك وصفاتك .. إلخ .

إذن : نزِّه ذات الله تعالى عن الذوات التي تعرفها ؛ لأنها ذوات وُهبَتْ الوجود ، أما ذات الله فغير موهوبة ، ذات الله ذاتية ، كذلك لك فعْل ، ولله تعالى فعْل .

وقد ذكرنا في قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا .. ① ﴾ [الإسراء]

إن الذين اعترضوا على هذا الفعل اعترضوا بغباء ، فلم يُفرِّقوا بين فعْل الله وفعْل العبد ، فرسول الله ﷺ لم يقل : سريْتُ من مكة إلى بيت المقدس . إنما قال : أُسْرِي بي .

فالاعتراض على هذا فيه مغالطة ، فإنْ كنتم تضربون إليها أكباد الإبل شهراً ؛ فذلك لأن سَيْركم خاضع لقدرتكم وإمكاناتكم ، أمّا الله تعالى فيقول للشيء : كُنْ فيكون ، فلا يحتاج في فعْله سبحانه إلى زمن . فمن الأدب ألاَّ تقارن فعْل الله بفعلك ، ومن الأدب أنْ تُنزِّه الله عن كل مَا يخطر لك ببال ، نزِّه الله ذاتاً ، ونزِّهه صفاتاً ، ونزهه أفعالاً .

ألا ترى أن (سبحان) مصدر للتسبيح ، يدل على أن تنزيه الله ثابت له سبحانه قبل أن يخلق مَنْ ينزهه ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ .. ⑱ ﴾ [آل عمران] فشهد الحق - تبارك وتعالى - لنفسه قبل أنْ تشهدوا ، وقبل أن تشهد الملائكة ، فهذه هي

شـهادة الذات للذات . وقـبل أن يخلق الله الإنسـان المـسبِّح سـبَّح لله السموات والأرض ساعة خلقهما سبحانه وتعالى .

وحين تتـتبع ألفاظ التسـبيح فى القرآن الكريم تجدهـا جاءت مرة بصيغة الماضى ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. ①﴾ [الحديد] فهل سـبَّحَتْ السموات والأرض مـرة واحدة ، فقالت : سبـحان الله ثم سكتَتْ عن التسبيح ؟ لا إنما سبَّحَتْ فى الماضى ، ولا تزال تُسبِّح فى الحاضر : ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ .. ①﴾ [الجمعة]

وما دام أن الكون كله سبَّح لله ، وما يزال يُسبِّح فلم يَبْقَ إلا أنت يا ابن آدم : ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ①﴾ [الأعلى] يعنى : اسـتح أن يكون الكون كله مُـسبِّحاً وأنت غـيـر مُسـبِّح ، فصِلْ أنت تسـبيـحك بتسبيح كل هذه المخلوقات .

وعجـيب أن نسـمع من يقول أن (مَنْ) فى الآية للعـاقل ، فـهو الذى يُسبِّح أمّـا السموات والأرض فـلا دخلَ لهما فى هذه المـسألة ، ونقول : لا دخلَ لها فى تصورك أنت ، أمّا الحقـيقة فإنها مثلك تُسبِّح كما قال تعالى : ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ .. ㊶﴾ [النور]

وقال : ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ .. ⑬﴾ [الرعد] فليس لك بعد كلام الله كلام .

وآخر يقول لك : التسبيح هنا ليس على الحـقيقة ، إنما هو تسبيح دلالة وحـال ، لا مـقـال ، يعنى : هذه المـخلوقـات تدلُّ بحـالهـا على تسبيح الله وتنزيهه ، وأنه واحد لا شريك له ، على حد قول الشاعر :

وَفِى كُلِّ شَىء لَهُ آيَةٌ تدُلُّ على أنَّه الوَاحِدُ

وهذا القول مردود بقوله تعالى : ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤)﴾ [الإسراء]

إذن : فهذه المخلوقات تُسبِّح على الحقيقة ولها لسان ولغة ، لكنك لا تفهم عنها ولا تفقه لغاتها ، وهل فهمتَ أنت كل لغات بنى جنسك حتى تفهم لغات المخلوقات الأخرى ؟ إن العربى إذا لم يتعلم الإنجليزية مثلاً لا يستطيع أن يفهم منها شيئاً ، وهى لغة منطوقة مكتوبة ، ولها ألفاظ وكلمات وتراكيب مثل العربية .

إذن : لا تقُلْ تسبيحَ حال ، هو تسبيح مقال ، لكنك لا تفهمه ، وكل شىء له مقال ويعرف مقاله ، بدليل أن الله تعالى إنْ شاء أطلع بعض أهل الاصطفاء على هذه اللغات ، ففهمها كما فهم سليمان عليه السلام عن النملة ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا .. (١٩)﴾ [النمل] وسمع كلام الهدهد وفهم عنه ما يقول عن ملكة سبأ .

ونقول لأصحاب هذا الرأى : تأملوا الخلية المسدَّسة التى يصنعها النحل وما فيها من هندسة تتحدى أساطين الهندسة والمقاييس أن يصنعوا مثلها ، تأمَّلوا عش الطائر وكيف ينسج عيدان القش ، ويُدخل بعضها فى بعض ، ويجعل للعُشِّ حافَّة تحمى الصغار ، فإذا وضعْتَ يدك فى العُشِّ وهو من القَشِّ وجدتَ له ملمسَ الحرير ، تأملوا خيوط العنكبوت وكيف يصطاد بها فرائسه ؟

لقد شاهدت فيلماً مصوراً يُسجِّل صراعاً بين دب وثور ، الدب رأى قرون الثور طويلة حادة ، وعلم أنها وسيلة الثور التى ستقضى عليه ، فما كان منه إلا أن هجم على الثور وأمسك قَرْنَيْه بيديه ، وظل ينهش رأس الثور بأسنانه حتى أثخنه جراحاً حتى سقط فراح يأكله .

إذن : كيف نستبعد أن يكون لهذه المخلوقات لغات تُسبِّح الله بها

لا يعرفها إلا بنو جنسها ، أو مَنْ أفاض الله عليه بعلمها ؟

ثم ألم يتعلَّم الإنسان من الغراب كيف يدفن الموتى لما قَتَل قابيلُ هابيلَ ؟ كما يقول سبحانه : ﴿ **فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ** .. (٣١) ﴾ [المائدة] وكأن ربنا - عز وجل - يُعلِّمنا الأدب وعدم الغرور .

وقرأنا أن بعض الباحثين والدارسين لحياة النمل وجدوا أنه يُكوِّن مملكة متكاملة بلغت القمة فى النظام والتعاون ، فقد لاحظوا مجموعة تمرُّ هنا وهناك ، حتى وجدتْ قطعة من طعام فتركوها وانصرفوا ، حيث أتوا ، ثم جاءت بعدهم كوكبة من النمل التفتْ حول هذه القطعة وحملتْها إلى العُشِّ ، ثم قام الباحث بوضع قطعة أخرى ضِعْف الأولى ، فإذا بمجموعة الاستكشاف (أو الناضورجية) تمر عليها وتذهب دون أنْ تحاول حَمْلها ، وبعدها جاء جماعة من النمل ضِعْف الجماعة الأولى ، فكأن النمل يعرف الحجم والوزن والكتلة ويُجيد تقديرها .

وفى إحدى المرات لاحظ الباحث فتاتاً أبيض أمام عُشِّ النمل ، فلما فحصه وجده من جنين الحبة الذى يُكوِّن النبتة ، وقد اهتدى النمل إلى فصل هذا الجنين حتى لا تُنبت الحبة فتهدم عليهم العُشّ ، لهذا الحد علم النمل قانون صيانته ، وعلم كيف يحمى نفسه ، وهو من أصغر المخلوقات ، أبعد هذا كله نستبعد أن يكون للنمل أو لغيره لُغته الخاصة ؟

ثم يقول سبحانه : ﴿ **وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ** .. (٤١) ﴾ [النور] فلماذا خَصَّ الطير بالذكْر مع أنها داخلة فى ﴿ **مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** .. (٤١) ﴾ [النور]

قالوا : خَصَّها لأن لها خصوصية أخرى وعجيبة ، يجب أن نلتفت إليها ؛ لأن الله تعالى يريد أنْ يجعل الطير مثلاً ونموذجاً لشيء أعظم ، فالطير كائن له وزن وثقل ، يخضع لقانون الجاذبية التى تجذب للأرض كُلَّ ثقل يعلَق فى الهواء .

لكن الحق - سبحانه وتعالى - يخرق هذا القانون للطير حين يصُفُّ أجنحته فى الهواء ، يظل مُعلَّقاً لا يسقط : ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمَـٰنُ .. ⦗١٩⦘﴾ [الملك]

وكأن الخالق - عز وجل يقول : خُذُوا من الطير المشاهد نموذجاً ووسيلة إيضاح ، فإذا قلتُ لكم : ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ .. ⦗٦٥⦘﴾ [الحج] فَصدِّقوا وآمنوا أن الله يُمسك السماء ، بل : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ .. ⦗٤١⦘﴾ [فاطر]

فخُذْ من المشهد الذى تدركه دليلاً على ما لا تدركه .

لكن ، مَن الفاعل فى ﴿عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ .. ⦗٤١⦘﴾ [النور] ؟

يمكن أن يكون الفاعل الطير وكل ما فى الوجود ، وأحسن منه أن نقول : علم الله صلاتها وتسبيحها ؛ لأنه سبحانه خالقها وهاديها إلى هذا التسبيح[1] . إذن : فكل ما فى الوجود يعلم صلاته ويعلم تسبيحه ، كما تعلم أنت المنهج ، لكنه استقام على منهجه لأنه مُسخَّر وانحرفت أنت لأنك مُخيَّر .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٦/٤٨٢٤) : « يجوز أن يكون المعنى : كل قد علم الله صلاته وتسبيحه ، أى : علم صلاة المصلى وتسبيح المسبِّح ؛ ولهذا قال : ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ⦗٤١⦘﴾ [النور] أى : لا يخفى عليه طاعتهم ولا تسبيحهم . وقد قيل : المعنى : قد علم كل مُصلٍّ ومسبِّح صلاة نفسه وتسبيحه الذى كلفه » .

فإنْ أردتَ أنْ تستقيمَ أمور حياتك فطبِّق منهج الله كما جاءك ؛ لذلك لا تجد فى الكون خللاً أبداً إلا فى منطقة الاختيار عند الإنسان ، كل شىء لا دخْلَ للإنسان فيه يسير منتظماً ، فالشمس لم تعترض فى يوم من الأيام ولم تتخلف ، كذلك القمر والنجوم والهواء ، إنها منضبطة غاية الانضباط ، حتى إن الناس يضبطون عليها حساباتهم ومواعيدهم واتجاهاتهم .

لذلك يقول تعالى : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) ﴾ [الرحمن] يعنى : بحساب دقيق ، وما كان للشمس أنْ تضبط الوقت إلا إذا كانت هى فى ذاتها منضبطة .

﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٤١) ﴾ [النور] أى : لقيوميته تعالى على خَلْقه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٤٢) ﴾

يريد ربك ـ عز وجل ـ أنْ يُطمئنك أن الذى كلَّفك بما كلَّفك به يضمن لك مُقوِّمات حياتك ، فلن ينقطع عنك الهواء فى يوم من الأيام ، ولن تتأبَّى عليك الشمس أو القمر أو الأرض ؛ لأنها ملْك لله ، لا يشاركه سبحانه فى ملكيتها أحد يمنعها عنك ، فاطمئن إلى أنها ستؤدى مهمتها فى خدمتك إلى يوم القيامة ، ولا تشغل نفسك بها ، فقد ضمنها الله .

ثم يقول رب العزة سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ(١) يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا(٢) بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (٤٣) ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ .. (٤٣) ﴾ [النور] يعنى : ألم تعلم ، وقد وقفنا مع تطور العلم على كيفية تكوُّن المطر بين التبخير والتكثيف الذى يُكوِّن السحاب ، وقلنا سابقاً : إن مُسطح الماء على الأرض ثلاثة أرباع اليابسة حتى تكفى هذه المساحة البخر اللازم لتكوّن المطر ، ونحن نُجرى مثل هذه العملية فى تقطير الماء حين نغلى الماء ونستقبل البخار على سطح بارد ، فتحدث له عملية التكثيف .

وقد أوضحنا هذه العملية بكوب الماء حين تتركه ممتلئاً وتسافر مثلاً ، فحين تعود تجد الكوب قد نقص قليلاً ، أما إذا أرقْتَهُ على الأرض ، فإنه يجفُّ سريعاً ، وقبل أن تغادر المكان ، لماذا ؟ لأنك وسَّعْتَ مساحة البَخْر .

ومعنى ﴿ يُزْجِي سَحَابًا .. (٤٣) ﴾ [النور] أى : يرسله برِفْق ومَهَل ؛ لذلك لما وصف الشاعر مَشْى الفتاة قال :

كَأنَّ مشْيَتَها منْ بيْت جَارَتها مَرُّ السَّحابَة لاَ رَيْث(٣) ولاَ عَجَل

(١) الودق : المطر ، شديده وهيِّنه . [لسان العرب ـ مادة : ودق] .

(٢) السنا : ضوء النار والبرق . قال أبو زيد : سنا البرق ضوؤه من غير أن ترى البرق أو ترى مخرجه فى موضعه ، فإنما يكون السنا بالليل دون النهار ، وربما كان فى غير سحاب [لسان العرب ـ مادة : سنا] .

(٣) الريث : الإبطاء . راث يريث : أبطأ . وتريث فلان علينا . أى : أبطأ . [لسان العرب ـ مادة : ريث] .

﴿ ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ .. (٤٣) ﴾ [النور] أي : يجمع بعضه على بعض ، وحين يُجمع الشيء بعضه على بعض لا بُدَّ أن يبقى بينه فاصل ، فلا يلتحم بغيره التحاماً تاماً ، ولولا هذه الفواصل بين قطَع السحاب ، ولولا هذه الفتوق ما نزل الوَدَق من خلاله .

ولو شاء سبحانه لجعل السحاب قطعة واحدة ، ولكنه سبحانه يؤلف بينه ويُجمِّعه بعضه على بعض دون أنْ يُوحِّده تكويناً ، فيحدث بذلك فراغاً بين قطع السحاب . أرأيتَ حين نلصق الورق بالصمغ مثلاً فمهما وضعت عليه من ثقل لا بُدَّ أن يبقى بينه فراغات ؛ لأنه ليس ذاتاً واحدة .

وعملية تفريغ الهواء هذه تلاحظها حين تضع كوباً مبلولاً وتتركه لفترة ، فيتبخر الماء من تحته ويخرج الهواء ، فإذا أردْتَ رفعه وجدته صعباً لماذا ؟ لتفريغ الهواء من تحت قاعدة الكوب ، وفي هؤلاء الذين يعالجون الآلام الناتجة عن البرد ، فيضعون الكوب مقلوباً على مكان الألم ، ثم يُشعلون بداخله قطعةً من القماش مثلاً لتحرق الهواء بداخل الكوب .

وبذلك نمنع الخلل في التقاء الكوب بالجسم ، وهذه المسألة هي سرُّ عظمة قدماء المصريين في البناء ، حيث تتماسك الحجارة دون وجود (مونة) تربط بينها .

إذن : وجود الهواء بين الشيئين يُحدث خللاً بينهما ، ولولا هذا الخلل في السحاب ما نزل منه الماء ، والمطر آية عظيمة من آيات الله لا نشعر بها ، ولك أنْ تتصور كم يُكلِّفنا كوب الماء المقطّر حين نُعدُّه في المعمل ، فما بالك بالمطر الذي يسقي الأرض كلها ؟

ثم يقول تعالى : ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا .. (٤٣) ﴾ [النور] يعني : مُكدَّساً

بعضه على بعض ، وفي آية أخرى : ﴿ وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الطور] متراكم بعضه على بعض ﴿ فَتَرَى الْوَدْقَ .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [النور] أي : المطر : ﴿ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [النور] أي : من خلال هذه الفجوات والفواصل التي تفصل بين السُّحب .

وهذا الماء الذي ينزل من السماء فيُحيي به الله الأرض قد يأتي نقمةً وعذاباً ، كما قال سبحانه : ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [النور] ولنا في أهل مأرب الذين أغرقهم الله عبرةٌ وعظة .

ولو تأملتَ لوجدتَ الماء والنار عدويْن متقابلين يصعب مقاومتهما ؛ لذلك كان العرب إلى عهد قريب يخافون الماء لما عاينوه من غرق بعد انهيار سدِّ مأرب ؛ لذلك آثروا أنْ يعيشوا في الصحراء بعيداً عن الماء .

وبالماء نجَّى الله تعالى موسى - عليه السلام - وأغرق عدوه فرعون ، ففعل سبحانه الشيء وضده بالشيء الواحد .

وقوله تعالى : ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [النور] أي : الضوء الشديد الذي يُحدثه السحاب يكاد أن يخطف الأبصار ، وفي البرق تتولد النار من الماء ؛ لذلك حينما يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ[1] ﴿٦﴾ ﴾ [التكوير] فصدِّق هذه الآية الغيبية ؛ لأنك شاهدتَ نموذجاً لها في مسألة البرق .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾ ﴾

(١) أي : امتلأت ماءً ، أو امتلأت ناراً يوم القيامة . [القاموس القويم ١/٣٠٣] .

فالليل والنهار آيتان يتتابعان لكن دون رتابة ، فالليل قد يأخذ من النهار ، والنهار يأخذ من الليل ، وقد يستويان فى الزمن تماماً . ومن تقليب الليل والنهار ما يعتريهما من حَرٍّ أو برد أو نور وظلمة .

إذن : فالمسألة ليست ميكانيكية رتيبة ، إنما هى قيومية الله تعالى وقدرته فى تصريف الأمور على مراده تعالى ؛ لذلك يقول تعالى بعدها : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾﴾ [النور]

العبرة والعَبرة والعبور والتعبير كلها من مادة واحدة ، نقول : هذا مكان العبور يعنى الانتقال من جهة إلى جهة أخرى ، وفلان عبَّر عن كذا ، يعنى : نقل الكلام النفسى إلى كلام باللسان ، والعبرة أنْ ننظرَ فى الشىء ونعتبر ، ثم ننتقل منه إلى غيره ، وكذلك العَبْرة لأنها حزن أسال شيئاً ، فنزل من عينى الدمع .

والعبرة هنا لمن ؟ ﴿لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾﴾ [النور] والمراد : الأبصار الواعية لا الأبصار التى تدرك فقط ، والإنسان له إدراكات بوسائلها ، وله عقل يستقبل المدركات ويغربلها ، ويخلُص منها إلى قضايا ، ومن الناس مَنْ يبصر لكنه لا يرى شيئاً ولا يصل من رؤيته إلى شىء ، ومنهم أصحاب النظر الواعى المدقِّق ، فالذى اكتشف قوة البخار رأى القدْر وهى تغلى وتفور فيرتفع عليها الغطاء ، وهذا منظر نراه جميعاً الرَّجل والمرأة ، والكبير والصغير ، لكن لم يصل أحد إلى مثل ما وصل إليه .

إذن : المراد الأبصار التى تنقل المبصر إلى العقل ليُحلِّله ويستنبط ما فيه من أسباب ، لعله يستفيد منها بشىء ينفعه ، والله تعالى قد خلق فى الكون ظواهرَ وآيات لو تأملها الإنسان ونظر إليها بتعقُّل وتبصُّر لاستنبطَ منها مَا يُثْرى حَياته ويرتقى بها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ ﴾

الدابة : كلّ ما يدبُّ على الأرض ، سواء أكان إنساناً أو أنعاماً أو وحشاً ، فكُلُّ ما له دبيب على الأرض خلقه الله من ماء حتى النملة لها على الأرض دبيب .

وكل شيء يضخم قابل لأنْ يُصغَّر ، وقد يُضخَّم تضخيماً لدرجة أنك لا تستطيع أن تدرك كُنْهه ، وقد يَصْغُر تصغيراً حتى لا تكاد تراه ، وتحتاج في رؤيته إلى مُكبِّر ، ومن عجائب الخَلْق أن النملة أو الناموسة فيها كل أجهزة الحياة ومُقوِّماتها ، وفيها حياة كحياة الفيل الضخم ، ومن عظمة الخالق سبحانه أن يخلق الشيء الضخم الذي يفوق الإدراك لضخامته ، ويخلق الشيء الضئيل الذي يفوق الإدراك لضآلته .

ألاَ ترى أن ساعة (بج بن) أخذتْ شهرتها لضخامة حجمها ، ثم جاء بعد ذلك مَنْ صنع الساعة في حجم فصِّ الخاتم ، وفيها نفس الآلات التي في ساعة (بج بن) ، كذلك خلق الله من الماء الفيل الضخم ، وخلق الناموسة التي تؤرق الفيل رغم صِغَرها .. سبحان الخالق .

ولما كان الماء هو الأصل في خَلْقة كل شيء حيٍّ وجدنا العلماء يقتلون حتى الميكروب الصغير الدقيق بأنْ يحجبوا عنه المائية فيموت ، ومن ذلك مداواة الجروح بالعسل ؛ لأنه يمتص المائية أو يحجبها ، فلا يجد الميكروب وسطاً مائياً يعيش فيه

وهذه الخلْقة ليست على شكل واحد ولا وتيرة واحدة في قوالب ثابتة ، إنما هي ألوان وأشكال ﴿ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ .. ﴿٤٥﴾ ﴾ [النور]

والمشى : هو انتقال الموصوف بالمشى من حَيِّز مكانى إلى حَيِّز مكانى آخر ، والناس تفهم أن المشى ما كان بالقدمين ، لكن يُوضِّح لنا سبحانه أن المشْى أنواع : فمن الدوابِّ مَنْ يمشى على بطنه ، ومنهم مَنْ يمشى على رِجْلَيْن ، ومنهم مَنْ يمشى على أربع(١) .

وربنا - سبحانه وتعالى - بسط لنا هذه المسألة بَسْطاً يتناسب وإعجاز القرآن وإيجازه ، فلم يذكر مثلاً أن من الدواب مَنْ له أربع وأربعون مثلاً ، وفى تنوع طُرق المشى فى الدواب عجائب تدلنا على قدرته تعالى وبديع خَلْقه .

لذلك قال بعدها : ﴿ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ .. ﴿٤٥﴾ ﴾ [النور] لأن الآية لم تستقْص كل ألوان المشى ، إنما تعطينا نماذج ، وتحت ﴿ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ .. ﴿٤٥﴾ ﴾ [النور] تندرج مثلاً (أم أربعة وأربعين) وغيرها من الدواب ، والآية دليل على طلاقة قدرته سبحانه .

وكما سخر الله الإنسان لخدمة الإنسان ، كذلك سخَّر الحيوان لخدمة الحيوان ليُوفِّر له مُقوِّمات حياته ، ألاَ ترى الطير يقتات على فضلات الطعام بين أسنان التمساح مثلاً فينظفها له ، إذن : فما فى

---

(١) قال النقاش : إنما اكتفى فى القول بذكر ما يمشى على أربع عن ذكر ما يمشى على أكثر ؛ لأن جميع الحيوان إنما اعتماده على أربع ، وهى قوام مشيه ، وكثرة الأرجل فى بعضه زيادة فى خلقته ، لا يحتاج ذلك الحيوان فى مشيه إلى جميعها . وقال ابن عطية : والظاهر أن تلك الأرجل الكثيرة ليست باطلاً ، بل هى محتاج إليها فى تنقل الحيوان ، وهى كلها تتحرك فى تصرفه . [تفسير القرطبى ٤٨٢٩/٦] .

فم التمساح من الخمائر والبكتيريا هى مخزن قوت لهذه الطيور ، ويحدث بينها توافق وانسجام وتعاون ، حتى إن الطير إنْ رأى الصياد الذى يريد أن يصطاد التمساح فإنها تُحدِث صوتاً لتنبه التمساح حتى ينجو .

ومن المشْى أيضاً السَّعْى بين الناس بالنميمة ، كما قال تعالى : ﴿ هَمَّازٍ[1] مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (١١) ﴾ [القلم]

وبعد أن أعطانا الحق - تبارك وتعالى - الأدلة على أن المُلْك له وحده ، وأن كل شىء يُسبِّح بحمده تعالى وإليه تُرجَع الأمور ، وأنه تعالى خلق كُلَّ دابة من ماء ، قال سبحانه :

﴿ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤٦) ﴾

يعنى : مَنْ ملك هذا المُلْك وحده ، وخلق لكم هذه العجائب أنزل لكم آيات بينات تحمل إليكم الأحكام ، فكما فعل لكم الجميل ، ووفر لكم ما يخدمكم فى الكون ، سمائه وأرضه ، فأدُّوا أنتم ما عليكم نحو منهجه وأحكامه ، واتبعوا هذه الآيات البينات .

ومعنى ﴿ مُبَيِّنَاتٍ .. (٤٦) ﴾ [النور] أى : لاستقامة حركة الحياة ؛ لأن حركة الحياة تحتاج لأنْ يتحرك الجميع ويؤدى كُلٌّ مهمته حتى تتساند الحركات ولا تتعاند ، فالذى يُتعب الدنيا أن تبنى وغيرك يهدم .

إذن : لا بُدَّ من ضابط قيمى يضبط كل الحركات ويحثّ كل

(١) الهماز : صيغة مبالغة . والهُمَزة : كثير الهمز واللمز والغمز واغتياب الناس وعيبهم . وقيل « الهمز » فى القفا والسر ، و « اللمز » عيب فى الوجه فى العلانية . [القاموس القويم ٣٠٧/٢] .

صانع أنْ يتقن صَنْعته ويُخلص فيها ، والإنسان غالباً لا يحسن إلا زاوية واحدة فى حياته ، هى حرفته وتخصصه ، وربما لا يحسنها لنفسه ؛ لأنه لا يتقاضى عليها أجراً ، لذلك يقولون (باب النجار مخلع) أما إنْ عمل للآخرين فإنه يُحسن عمله ويتقن صنعته ، وكذلك يتقن الناس لك ما فى أيديهم ، فتستقيم الأمور ، فأحْسن ما فى يدك للناس ، يحسنْ لك الناسُ ما فى أيديهم .

وقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ ﴾ [النور]

ولقائل أنْ يسأل : وما ذنب مَنْ لم يدخل فى هذه المشيئة فلم يَهْتد ؟ وسبق أن قلنا : إن الهداية نوعان : هداية الدلالة وهداية المعونة على الدلالة .

فالله تعالى يهدى الجميع هداية الدلالة ، ويبين للكل أسباب الخير وسُبل النجاة وطريق الفلاح والأسلوب الأمثل فى إدارة حركة الحياة ، فمَنْ سمع كلام الله ووثق فى توجيهه وأطاع فى هداية الدلالة أعانه بهداية المعونة .

فساعة تسمع : ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [المائدة]

﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾ [البقرة]

فاعلم أنهم امتنعوا عن هداية الدلالة فامتنعت عنهم هداية المعونة ، لا هداية الدلالة والإرشاد والبيان .

وقلنا : إن كلمة ﴿ أَنزَلْنَا .. ﴿٤٦﴾ ﴾ [النور] تشعر باحترام الشيء المنزَّل ؛ لأن الإنزال لا يكون إلا من العُلُو إلى الأدنى ، فكأن ربك - عز وجل - حين يكلفك يقول لك : أريد أن أرتفع بك من مستوى الأرض إلى عُلو السماء ؛ لذلك يقول تعالى فى موضع آخر : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ .. ﴿١٥١﴾ ﴾ [الأنعام]

أي : لا تضعوا لأنفسكم القوانين ، ولا تسيروا خلف آرائكم وأفكاركم ، إنما تعالوا إلى الله وخذوا منه سبحانه منهج حياتكم ، فهو الذي خلقكم ، وخلق لكم هذه الحياة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾

وفي آية أخرى يقول سبحانه : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ ﴾ [النساء]

وهؤلاء هم المنافقون ، وخَيْبة المنافق أنه متضارب الملكات النفسية ؛ ذلك لأن للإنسان ملَكات متعددة تتساند حال الاستقامة ، وتتعاند حَال المعصية ، فالإنسان تراه طبيعياً حين ينظر إلى ابنته أو زوجته ، لأن ملَكاته منسجمة مع هذا الفعل ، أما حين ينظر إلى محارم الغير فتراه يختلس النظرة ، يخاف أنْ يراه أحد يتلصّص ويحتاط ؛ لأن ملَكاته مضطربة غير منسجمة مع هذا الفعل .

لذلك يقولون : الاستقامة استسامة[1] ، فملكات النفس بطبيعتها متساندة لا تتعارض أبداً ، لكن المنافق فضلاً عن كذبه ، فهو متضارب الملَكات في نفسه ؛ لأن القلب كافر واللسان مؤمن .

لذلك فكرامة الإنسان تكون بينه وبين نفسه قبل أن تكون بينه وبين الناس ، فقد يصنع الإنسان أمام الناس صنائع خير تُعجب الآخرين ، لكنه يعلم من نفسه الشر ، فهو وإن كسب ثقة المجتمع من حوله ، إلا أنه خسر رأي نفسه في نفسه ، وإذا خسر الإنسان نفسه

(١) من تقلد الوسام وآثر الحسن والجمال فالاستسامة طلب الحسن والجمال .

فلن يُعوِّضه عنها شيء حتى إنْ كسب العالم كله ؛ لأن المجتمع لا يكون معك طول الوقت ، أمّا نفسك فملازمة لك كل الوقت لا تنفك عنها ، فأنا كبير أمام الناس ما دُمْت معهم ، أمّا حين أختلي بنفسي أجدها حقيرة : فعلتُ كذا ، وفعلت كذا .

إذن : أنت حكمتَ أنّ رأى الناس أنفَسُ من رأيك ، ولو كان لرأيك عندك قيمة لحاولت أن يكون رأيك في نفسك صحيحاً ، لكن أنت تريد أن يكون رأى الناس فيك صحيحاً ، وإنْ كان رأيك عند نفسك غير ذلك .

ويقول تعالى فى هؤلاء : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾ [النساء]

فقد حكم عليهم أنهم يزعمون ، والزعم مطيّة الكذب ، والدليل على أنهم يزعمون أنهم يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت ، ولو كانوا مؤمنين بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك ما تحاكموا إلى الطاغوت ، وهكذا فضحوا هم أنفسهم ، فالثانية فضحتْ الأولى .

لذلك قالوا : إن الكافر أحسن منهم ؛ لأنه منسجم الملكات : قلبه موافق للسانه ، قلبه كافر ولسانه كذلك ، ومن هنا كان المنافقون فى الدَّرْك الأسفل من النار .

والحق - تبارك وتعالى - يعطينا صورة ونموذجاً يحذرنا ألاَّ نحكم على القول وحده ، فيقول تعالى عن المنافقين : ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾﴾ [المنافقون]

وهذه المقولة ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ .. ①﴾ [المنافقون] مقولة صادقة ، لكن القرآن يُكذِّبهم فى أنهم شَهدوا بها .

وقد نزلتْ هذه الآية[1] فى أحد المنافقين أظن أنه بشر[2]، وكانت له خصومة مع يهودى ، فطلب اليهودى أن يتحاكما عند رسول الله ﷺ ، وطلب المنافق أنْ يتحاكما عند كعب بن الأشرف ، لكن رَدَّ اليهودى حكومة كعب لما يعلمه من تزييفه وعدم أمانته - والإنسان وإن كان فى نفسه مُزَيِّفاً إلا أنه يحب أنْ يحتكم فى أمره إلى الأمين العادل - وفعلاً تغلّب اليهودى وذهبا إلى رسول الله فحكم لليهودى . وفى هذا دلالة على أن اليهودى كان ذكياً فَطِناً ، يعرف الحق ويعرف مكانة رسول الله ﷺ .

لكن المنافق لم يَرْضَ حكم رسول الله ، وانتهى بهما الأمر إلى عمر رضى الله عنه وقَصَّا عليه ما كان ، ولما علم أن المنافق رَدَّ حكم

---

(١) يقصد الآيتين التاليتين من سورة النور آية ٤٨ ، ٤٩ .

(٢) هذه القصة وردت فى سبب نزول آية أخرى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ .. ⑥⓪﴾ [النساء] . أوردها الواحدى فى أسباب النزول (ص ٩٢) عن ابن عباس قال : « نزلت - أى آية سورة النساء - فى رجل من المنافقين كان بينه وبين يهودى خصومة ، فقال اليهودى : انطلق بنا إلى محمد . وقال المنافق : بل نأتى كعب بن الأشرف وهو الذى سماه الله تعالى الطاغوت ، فأبى اليهودى إلا أن يخاصمه إلى رسول الله ﷺ ، فلما رأى المنافق ذلك أتى معه إلى رسول الله ﷺ ، فاختصما إليه ، فقضى رسول الله ﷺ لليهودى ، فلما خرجا من عنده لزمه المنافق وقال : ننطلق إلى عمر بن الخطاب ، فاقبلا إلى عمر . فقال اليهودى : اختصمنا أنا وهذا إلى محمد فقضى عليه فلم يرض بقضائه : وزعم أنه مخاصم إليك وتعلق بى فجئت إليك معه . فقال عمر للمنافق : أكذلك ؟ قال : نعم . فقال لهما : رويداً حتى أخرج إليكما . فدخل عمر وأخذ السيف فاشتمل عليه ، ثم خرج إليهما وضرب به المنافق حتى برد . وقال : هكذا أقضى لمن لم يرض بقضاء الله وقضاء رسوله ، وهرب اليهودى ونزلت هذه الآية . وقال جبريل : إن عمر فرق بين الحق والباطل ، فسُمّى الفاروق » .

وقد أوردها أيضاً فى أسباب النزول (ص ١٨٨) وكذا أوردها القرطبى فى تفسيره (٤٨٣١/٦) .

رسول الله قام عمر وجاء بالسيف يُشْهره في وجه المنافق وهو يقول : مَنْ لم يَرْضَ بقضاء رسول الله فذلك قضائي فيه .

إذن : فهؤلاء يقولون : ﴿آمنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا .. (٤٧)﴾ [النور] كلام جميل وأكثر الله من خيركم ، لكن هذا قول فقط لا يسانده تطبيق عملي ، والإيمان يقتضي أن تجيء الأعمال على وَفْق منطوق الإيمان .

فهذا منهم مجرد كلام ، أما التطبيق : ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ .. (٤٧)﴾ [النور] والتولِّي : الانصراف عن شيء كان موجوداً إلى شيء مناقض ﴿وَمَا أُولَـٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧)﴾ [النور] فما داموا قد تولوا فهم لم يطيعوا ولم يؤمنوا .

﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ (٤٨) وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩)﴾

المراد ما كان من أمر بشر واليهودي ، وقد أعرضا عن حكم الله ورسوله ، وإنْ كان إعراض المنافق واضحاً فالآية لا تريد تبرئة ساحة اليهودي ، لأنه ما رضى بحكم الله إلا لأنه واثق أن الحق له وواثق أن رسول الله ﷺ لن يحكم إلا بالحق ، حتى وإنْ كان ليهودي ، وإذن : ما أذعن لحكم الله ورسوله محبةً فيه أو إيماناً به ، إنما لمصلحته الشخصية ، لذلك يقول تعالى بعدها :

﴿أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ[1] ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ (٥٠)﴾

---

(١) الحيف : الميل في الحكم والجور فيه . حاف يحيف : جار وظلم . [القاموس القويم ١٨١/١] .

والمرض : خروج الشيء عن استقامة سلامته ، فكل عضو من أعضائك له سلامة : العين لها سلامة ، والأذن لها سلامة .. الخ والعجيب أن تعيش بالجارحة لا تدرى بها طالما هى سليمة صحيحة ، فإذا أصابها مرض تنبهتَ إليها ، وأحسست بنعمة الله عليك فيها حال سلامتها .

﴿ أَمِ ارْتَابُوا .. ۝ ﴾ [النور] يعنى : شكُّوا فى رسول الله ﴿ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ .. ۝ ﴾ [النور] يعنى : يجور ويظلم ﴿ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ۝ ﴾ [النور] أى : لأنفسهم أولاً ، وذلك منتهى الحُمْق أن يظلم الإنسان نفسه ، لو ظلم غيره لَقُلْنا : خير يجلبه لنفسه ، لكن ما الخير فى ظلم الإنسان لنفسه ؟ ومَنْ ظلم نفسه لا تَأْمَنْه إن ظلم الآخرين .

والحق - تبارك وتعالى - حينما يعاقب الظالم ، فذلك لمصلحته حتى لا يتمادى فى ظُلْمه ، ويجرُّ على نفسه جزاء شر بعد أن كان الحق سبحانه يُمنّيه بجزاء خير .

ثم يأتى السياق بالمقابل :

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٥١ ﴾

فما دُمْتَ قد آمنتَ ، والإيمان لا يكون إلا عن رغبة واختيار لا يجبرك أحد عليه ، فعليك أن تحترم اختيار نفسك بأنْ تطيعَ هذا الاختيار ، وإلا سفَّهتَ رأيك واختيارك ، لذلك كان حال المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله أن يقولوا : سمعنا وأطعنا .

ولو تأملتَ الكون من حولك لوجدتَهُ يسير على هذه القاعدة ، فما دون الإنسان فى كَوْن الله مُسيَّر لا مُخيَّر ، وإنْ كان الأصل أنه خُيِّر

أولاً ، فاختار أن يكون مُسيّراً من البداية ، وأراح نفسه ، كما قال سبحانه :

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا .. ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب]

وتصدير الآية الكريمة بـ (إنما) يدل على أنها سبقها مقابل ، هذا المقابل على النقيض لما يجيء بعدها ، فالمنافقون أعرضوا وردُّوا حكم الله ورسوله ، والمؤمنون قالوا سمعنا وأطعنا ، كما تقول : فلان كسول إنما أخوه مُجِدٌّ . فقول المنافقين أنهم لا يقبلون حكم الله ورسوله ، أمّا المؤمنون فيقبلون حكْم الله ورسوله .

ومعنى ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا .. ﴿٥١﴾﴾ [النور] يعنى : سمعنا سمعاً واعياً يليه إجابة وطاعة ، لا مجرد أنْ يصل الصوت إلى أذن السامع دون أن يُؤثر فيه شيء .

ويقول تعالى فى موضع آخر : ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ .. ﴿٨٣﴾﴾ [المائدة]

فالسمع له وظيفة ، وهو هنا بمعنى : أجَبْنا يا رب ، وصممنا على الإجابة ، وهذا وعد كلامى يتبعه تنفيذ وطاعة . مثل قولنا فى الصلاة : سمع الله لمن حمده ، يعنى : أجاب الله مَنْ حمده .

﴿وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾ [النور] المفلحون : الفائزون الذين بلغوا درجة الفلاح ، ومن العجيب أن يستخدم الحق سبحانه كلمة الفلاح ، وهى من فلاحة الأرض ؛ لأن الفلاحة فى الأرض هى أصل الاقتيات ، وكل مَنْ أتقن فلاحة أرضه جاءت عليه بالثمرة الطيبة ، وزاد خيره ، وتضاعف محصوله ، حتى إن حبة القمح تعطى سبعمائة حبة ، فإذا كانت الأرض وهى مخلوقة لله تعالى تعطى من يزرعها كل

هذا العطاء ، فما بالك بخالق الأرض كيف يكون عطاؤه ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

كان سيدنا الشيخ موسى شريف - رحمه الله ورضى الله عنه - يدرس لنا التفسير ، فلما جاءت هذه الآية قال : اسمعوا ، هذه برقية من الله تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [النور] فلم تَدَع هذه الآية حُكْماً من أحكام الإسلام إلا جاءتْ به فى هذه البرقية الموجزة التى جمعتْ المنهج كله[1].

ومعنى ﴿ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ .. ﴿٥٢﴾ ﴾ [النور] آمن بالله وأطاعه وصدَّق رسوله ﴿ وَيَخْشَ اللَّهَ .. ﴿٥٢﴾ ﴾ [النور] أى : يخافه لما سبق من الذنوب ﴿ وَيَتَّقْهِ . ﴿٥٢﴾ ﴾ [النور] فى الباقى من عمره ﴿ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [النور] وهكذا جمعتْ الآيةُ المعانىَ الكثيرة فى اللفظ القليل الموجز .

ومعلوم أن التعبير الموجز أصعب من الإطناب والتطويل ، وسبق أنْ ذكرنا قصة الخطيب الإنجليزى المشهور حين قالوا له : إذا طُلب

---

(١) ذكر القرطبى فى تفسيره (٦/٤٨٢٣) أن عمر بينما هو قائم فى مسجد النبى ﷺ وإذا رجل من دهاقين الروم على رأسه وهو يقول : أنا أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله . فقال له عمر : ما شأنك ؟ قال : أسلمت لله . قال : هل لهذا سبب ؟ قال : نعم إنى قرأت التوراة والزبور والإنجيل وكثيراً من كتب الأنبياء ، فسمعت أسيراً يقرأ آية من القرآن جمع فيها كل ما فى الكتب المتقدمة ، فعلمت أنه من عند الله فأسلمت . قال : ما هذه الآية ؟ قال : قوله تعالى ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ ﴾ فى الفرائض ﴿ وَرَسُولَهُ ﴾ فى السنن ﴿ وَيَخْشَ اللَّهَ ﴾ فيما مضى من عمره ﴿ وَيَتَّقْهِ ﴾ فيما بقى من عمره ﴿ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ والفائز من نجا من النار وأدخل الجنة . فقال عمر : قال النبى ﷺ : « أوتيتُ جوامع الكلم » .